# إستدلالاتُ الأمامِ الكاظمِ عليه السلام بالنصِّ القُرآنيِّ

## (رسالةٌ في العقل أنموذجاً)

د. صادق فوزي النجاري
كليّة الآداب - جامعة الكوفة

### فحوى البحث

يهدف البحث الى استقصاء الآيات القرآنية التي تناولها الامام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام في رسالته في العقل التي وجهها الى هشام بن الحكم، وتحليل تلك الآيات والوقوف عليها والتي استطاع عليه السلام من خلالها التدليل على عدة أمور منها: وحدانية الله -سبحانه-، ورجحان العقل والعلم واولي الألباب، والممنوعات والمحظورات، والوعظ والارشاد، والترغيب و الترهيب، والقلة والكثرة. وهي اربعون آية شريفة تمحورت حول هذه المفاصل والتي ذكرت في سياق البحث.

## المقدمة

إنَّ النص القرآني نبع لا ينضب ومعين لا يفنى إذ أودع سبحانه فيه سر الخلود وداعي البقاء إلى نهاية البشرية، فعلى الرغم من أنه منظوم بالحرف العربي الذي يتألف منه كلام البشر ويقوم عليه خطابهم، فان هذا النص يقرا منذ خمسة عشر قرنا ويهيم في نطاقه الباحثون من دون توقف أو فتور، فقد اعجز فصحاء عصره بدليل قوله سبحانه ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [سورة الإسراء ٨٨]، وتأسيساً على هذا المنطلق وتلك الخصوصية حاولنا في هذا البحث أن نقف على الآيات القرآنية التي استدل بها الإمام الكاظم عليه السلام في رسالته الموجهة إلى تلميذه هشام بن الحكم والتي تتمحور حول العقل واستنطاقه من خلال الوقوف على الآيات التي وظفها الإمام عليه السلام في شرح مفردة العقل وكيفية التوصل به إلى معرفة الخالق، فبالعقل يعاقب الإنسان وبه يثاب. مستدلين في ذلك على القرائن والسياقات الدالة عليه.

فخطب الأئمة ورسائلهم انمازت عن غيرها من الخطابات بأنها محفوظة على مدى الدهر، فضلاً عن أنها خطابات تذوب فيها وتندمج كثير من المضامين (الخطابات السماوية وغير السماوية) وهذا ما جعلها نظاما يمتاح منه المتلقي مَعينه الذي لا ينضب على مر العصور، منذ لحظة قولها والى عصرنا الراهن الذي تعددت فيه الاتجاهات الفلسفية والفكرية، فضلاً عن التوجهات اللغوية العديدة.

فإذا كان النص القرآني هو الكتاب الأعظم الذي ضم بين دفتيه أروع المضامين الفكرية واجل المنظومات التنظيمية لضبط حياة الناس وحقوقهم فانه يمكن القول إن خطب الأئمة الأطهار قد تجلت فيها هذه المكنونات المضمونية بفعل مقتضيات الصياغة اللغوية، إذ لا يخفى على احد أن الأئمة الأطهار هم سلالة رسول الله صلى الله عليه وآله ومعدن الوحي والتنزيل، والإمام موسى بن جعفر عليه السلام هو احد أفذاذ العقل الإنساني ومن كبار أئمة المسلمين، واحد شموع الثقل الأكبر الذي أضاء الحياة العلمية في التاريخ، وقد اجتمعت فيه من الصفات

والعناصر ما تؤهله للمثالية الكاملة، كيف لا وهو من الدوحة المحمدية، ومن الذين من تمسك بهم نجا ومن تخلف عنهم غرق.

والرسالة التي سوف تكون محور بحثنا مشتملة على بيان حقيقة العقل وصفاته وخواصه ومدائحه، ومتضمنة معارف جليلة قرآنية، ومقاصد شريفة الهبة، وفيها أبواب عظيمة تطرق الإمام الكاظم عليه السلام فيها إلى العلم والعلوم الإلهية، ومعرفة علم السماء والفلكيات والأكوان، واحتوت كذلك على علم النفس وتهذيب الأخلاق وتطهير النفوس من الرذائل والأخطاء ووجهت النفس البشرية إلى الخير والطريق الصحيح من خلال الوعظ والإرشاد وإبداء النصائح وذم الدنيا وما جرى لبعض الأقوام فيها من عذاب وهلاك، وتذكيرهم بالمعاد ويوم الحشر وما يؤول إليه أمر الجهلة الذين لم يتفكروا في أمر هذه الدنيا الفانية.

## المبحث الأول:

## (استدلال الإمام الكاظم عليه السلام بالآيات الصريحة على العقل)

انفرد فقهاء الأمامية عن بقية المذاهب الإسلامية، فعدوا العقل احد المدارك الأربعة لاستنباط الإحكام الشرعية، وهو في المرتبة الرابعة من العقول الأربعة المذكورة في علم النفس[1]. وقد أضفوا عليه أسمى ألوان التقديس، فاعتبروه رسول الله الباطني، وانه مما يعبد به الرحمن، ويكتسب به الجنان.

ومن الطبيعي ان حكم العقل يمكن الرجوع اليه إذا لم يك في المسالة نص، وإلا فهو حاكم عليه، وان للعقل مسرحاً كبيراً في علم الأصول الذي يتوقف عليه الاجتهاد. إذ أكثر مسائل الفقه يستند فيها الفقهاء وعلماء الأمة إلى ما تقضيه القواعد الأصولية فيها، وفي ضوء حكم العقل فقد حكموا بوجوب مقدمة الواجب، وان الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضده، كما حكموا بحجية الظن المطلق بناءاً على الحكومة لا على الكشف، وارجعوا الخبرين المتعارضين إلى حكم العقل، فان أيد احدهما فيؤخذ به حسبما دلت عليه الأخبار إلى غير ذلك من نظائر هذه المسائل التي يرتبط موضوعها بحكم العقل، وهذا

(١) ينظر: علم النفس التربوي ٦٥.

مما يدعو إلى الاعتزاز والفخر بحيوية الفقه الأمامي وأصالته.

وقد ذكر الإمام الحسن عليه السلام فضل العقل بقوله: (لا أدب لمن لا عقل له، ولا مروة لمن لا همة له، ولا حياء لمن لا دين له، ورأس العقل معاشرة الناس بالجميل، وبالعقل تدرك سعادة الدارين، ومن حرم من العقل حرمهما جميعا)[٢]. وتحدث الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن فضل العقل وانه من أعظم ما خلق الله تعالى بقوله: (لما خلق الله العقل استنطقه. ثم قال له: اقبل فاقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أحب إلي منك، ولا اكملتك إلا فيمن أحب إما إني إياك أمر، وإياك انهي، وإياك أعاقب، وإياك أثيب)[٣]. فبالعقل ترتفع قيمة الإنسان، ولولاه لما كان هناك أي فرق بينه وبين الحيوان، وهو من الشرائط الأولية في صحة التكليف كما يرى الفقهاء[٤]. فهو القوة التي يدير بها الإنسان أموره ويدبر بها شؤونه على الوجه الصحيح ويميز بها الحسن عن القبيح[٥]، وعليه فالعقل آية من آيات الله العظام، ولطف من أروع ألطافه التي منحها للإنسان، وفضله به على جميع الكائنات الحية من مخلوقاته، وكان من أهميته البالغة أن الله تعالى ناط به ثوابه وعقابه، وهو شرط في صحة التكليف الشرعي[٦]. والعقل لغة: القوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل، وهذا العقل هو المعني بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣] وكل موضع ذم الله فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول نحو قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٧١] وكل موضع رفع التكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأول[٧]. على أن أصل العقل الإمساك والاستمساك كعقل البعير

(٢) أعيان الشيعة ١/ ٥٧٧.
(٣) أصول الكافي ١/ ١٠، الحديث(١).
(٤) ينظر: حياة الإمام محمد الباقر عليه السلام ١/ ٣٢١.
(٥) ينظر: المدخل إلى الشريعة الإسلامية ٣٦.
(٦) ينظر: موسوعة الإمام الصادق عليه السلام ٤/ ١١.
(٧) ينظر: المفردات في غريب القران ٣٥٥.

بالعقال وعقل الدواء البطن[٨]. وقد ذكر الرازي أن العقل معناه الحجر والنهي[٩]. أما اصطلاحاً فالعقل ليس جسما محددا وما هو بعضلة، وإنما آلية (عملية) معقدة غاية التعقيد، ويتكون من عديد من الإجراءات المتصلة بالتعرف، تتفاعل وتتعاون جميعها، وتعمل في آن واحد[١٠]. وتأييدا لذلك، قال ديكارت في مقطع مشهور من كلامه انه علينا إلا ننظر إلى العقل وكأنه قبطان سفينة في الجسد، بل علينا أن نفكر به ككائن مقيم في جميع أنحاء الجسد، فإذا اصطدمت بشيء ما فانا لا ألاحظ جسدي يصطدم بشيء آخر، كما يلاحظ القبطان اصطدام السفينة بالرصيف، ولكنني اشعر بألم في ذلك الجزء من جسدي الذي احتك مع الشيء، ويجب أن نفكر بعقولنا وكأنها منتشرة في كل بقعة مكانية من الجسد[١١]، فالعقل هو القوة المدبرة والمديرة للبدن والميسرة له في تصرفاته الاختيارية في صالحه، وليس مراد الأصوليين من العقل هو القوة الكاملة الموجودة في الأنبياء والأوصياء، ولا الناقصة الموجودة في الهمج الرعاع، وإنما مرادهم بها الموجودة في أواسط الناس الخالية من الشوائب والأوهام فهو لديهم كل حكم عقلي ينتهي إلى القطع بالحكم، والعقل له دلالة على الحكم الشرعي كما إن الكتاب العزيز والسنة الشريفة والإجماع[١٢]. والعقل كما يراه شيخنا باقر شريف القرشي (حفظه الله) فهو القوة المبدعة التي أوجدها الله في الإنسان وشرفه بها على سائر الموجودات، وقد استطاع بعقله وتفكيره أن يستخدم جميع الموجودات ويكشف أسرارها ويميط الحجاب عن دقائقها[١٣]، إذن فالعقل هو (عملية فكرية تقوم على ربط المفاهيم بعضها ببعض، وإدراك ما تشابه منها وما اختلف، ومعرفة علاقات بعضها ببعض، وقد سمي العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه (أي يمنعه) عن التورط في المهالك)[١٤].

(٨) المصدر نفسه.
(٩) مختار الصحاح ٤٤٧.
(١٠) أقوال مأثورة ٤١، وينظر: الإدارة بالذكاءات ٧٠.
(١١) العقل -مدخل موجز -٣٣.
(١٢) المدخل إلى الشريعة الإسلامية ٥٣.
(١٣) حياة الإمام موسى بن جعفر ١/ ١٢٠.
(١٤) الأذكياء ١٧.

ومن هذا المنطلق قال ديكارت: لا يكفي أن يكون لك عقل جيد، بل المهم هو أن تستخدمه بشكل جيد[١٥]. وأهمية العقل تتمحور في تدبير شؤون الإنسان وإيصاله إلى المراتب العالية والتي من أهمها معرفة الإنسان بخالقه العظيم، فالعقل المبدع الذي لم تلوثه الجرائم والآثام يدل الإنسان ويرشده إلى مدبره، فان من المستحيل عقلا، والممتنع ذاتا إن لا يكون لهذا العالم صانع ومدبر، فان الأثر يدل على المؤثر، والمعلول على علته -كما يقول المنطقيون- فالسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، وما في الإنسان من أجهزة عجيبة كلها تنادي بوجود خالقها ومدبرها العظيم. وقد أدلى الإمام الصادق عليه السلام بحديث ممتع في أهمية العقل إلا هو: (إنَّ أول الأمور ومبدأها، وقوتها وعمارتها، التي لا ينتفع بشيء إلا به (العقل) الذي جعله الله زينة لخلقه، ونورا لهم. فبالعقل عرف العباد خالقهم وإنهم مخلوقون، وانه المدبر لهم وإنهم المدبرون، وانه الباقي وهم الفانون، واستدلوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه، من سمائه وأرضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، إن لهم خالقا ومدبرا لم يزل ولا يزول، وعرفوا به الحسن من القبيح، وان الظلمة في الجهل، وان النور في العلم، فهذا ما دلهم عليه العقل)[١٦] ولا بد ابتداءا من وضع النقاط على الحروف، فقد فجر الإمام موسى بن جعفر عليه السلام -فيما اثر عنه من جوامع الكلم -ينابيع الحكمة، وقواعد الأخلاق والآداب، كما خاض فيها أسرار الكون، وطبائع الناس وخصائصهم وغرائزهم، ووضع المناهج السليمة لإصلاحها وتهذيبها، لقد عني الإمام الكاظم عليه السلام في جوامع كلماته بجميع قضايا الإنسان، ووضع الحلول الحاسمة لعلاجها، قد حكت ذلك آراؤه المشرقة في فضل العقل، ومدى أهميته في بناء الحضارة الإنسانية، وبيانه لواقع السياسة المستقيمة التي ينعم في ظلالها البشر، وحثه على التحلي بالصفات الكريمة التي يتميز بها الإنسان عن الحيوان السائم، وتحذيره من الصفات الذميمة التي تهبط بالإنسان إلى مستوى سحيق ما له من قرار، وتناولت

(١٥) أقوال مأثورة ٤١.

(١٦) أصول الكافي ١/ ٢٩.

كلماته مجموعة من المواعظ الباهرة التي تكبح نزوات النفس وشهواتها، وحذرت من مداخل الشيطان ومخارجه، وغوايته التي يشقى بها الإنسان.

لقد عرض الإمام الكاظم عليه السلام لذلك ولغيره مما ينفع الناس بأسلوب متساوق الإغراض يعد في القمة من النثر العربي من حيث بلاغته وفصاحته. وسوف نستدل بالآيات القرآنية التي ذكرها الإمام الكاظم عليه السلام في رسالته في العقل ومعرفة أهم المحاور التي أرادها الإمام عليه السلام توجيها للناس من خلال التمعن والتفكر.

١. وحدانية الله عز وجل:

قال الإمام الكاظم عليه السلام في رسالته: (يا هشام، إن الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول، ونصر النبيين بالبيان ودلهم على ربوبيته بالأدلة فقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٦٣ -١٦٤][١٧] والشيء الذي لا جدال فيه أن الإنسان بجميع ما يملك من طاقات فكرية، فانه عاجز عن معرفة حقيقة الله، لان العقول في جميع تصوراتها محدودة، يقول الامام الشافعي: (إن للعقل حدا ينتهي إليه، كما إن للبصر حدا ينتهي إليه) إن جميع الأشياء التي يتوصل إليها حس الإنسان لا بد أن توجد في مكان ويجري عليها الزمان، ولا يستطيع العقل أن يتخيل موجودات لا مكان لها أو أشياء لا يجري عليها الزمان، وذات الله تعالى يعجز العقل أن يدرك واقعها، لأنها لا يجري عليها الزمان ولا المكان، فانه تعالى هو الذي خلقهما، فضلاً عن ذلك فان في الكون أمورا كثيرة قد عجز العقل عن الإحاطة بكنهها والتي منها الحقيقة الغيبة، فان العقل لم يهتد إلى معرفتها.

إنَّ ذات الله تعالى لا تدركها أوهام القلوب على مدى ما تحمل من سعة الخيال فضلاً عن إدراكها بالعين الباصرة فان كلا منها محدود بحسب الزمان والمكان، انه

(١٧) حياة الإمام موسى بن جعفر ١/ ١٢٢.

ليس هناك شيء ابعد من إدراك ذات الله تعالى، فإنها تمتنع على العقول، وتعجز من أن تلم بأي جانب من جوانبها، وقد أدلى بذلك الإمام أبو جعفر عليه السلام حيث سئل عن قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٣] فقال عليه السلام: أوهام القلوب أدق من إبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان التي لم تدخلها ولا تدركها ببصرك، وأوهام القلوب لا تدركه فكيف إبصار العيون[١٨].

فالملاحظ في الآية التي استدل بها الإمام عليه السلام إن الإله واحد وليس له ثان والفارق بين واحد وأحد هو إن واحد تعني ليس له ثان وأحد يعني ليس مركبا ولا مكونا من أجزاء وذكر ثعلب فرقاً بين أحد وواحد، وهو إن احد لا يبنى عليه العدد ابتداء فلا يقال: أحد، واثنان كما يقال واحد، واثنان، ولا يقال: (رجل أحد) كما يقال: (رجل واحد)، وكذلك اختص به الله سبحانه وتعالى[١٩].

وينقل الرازي لنا الوجوه التي ذكرت في الفرق بين واحد وأحد فيقول: (ذكروا في الفرق بين الواحد والأحد وجوها: احدها: إن الواحد يدخل في الأحد، والأحد لا يدخل فيه. وثانيها: انك إذا قلت: فلان لا يقاومه واحد جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان، بخلاف الأحد، فانك لو قلت فلان لا يقاومه أحد، لا يجوز أن يقال لكنه يقاومه اثنان. وثالثاً: إن الواحد يستعمل في الإثبات والأحد في النفي، نقول في الإثبات: رأيت رجلا واحدا، ونقول في النفي: ما رأيت أحدا فيفيد العموم[٢٠]، وذكر ابن عباس إن سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله صف لنا وانسب لنا ربك فانزل الله هذه الآية وسورة الإخلاص[٢١].

فالله سبحانه يريد أن ينبه العقل إلى أن يستقبل نعمة الوجود في ذاته وفي الكون المسخر له ليستنبط من هذه الآيات العجيبة صدق الله في قوله ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ ﴾ فلما اخبر سبحانه الكفار بان الله واحد لا ثاني له قالوا ما الدلالة على ذلك فقال

(١٨) ينظر: أصول الكافي ١/ ٩٩، الحديث(١١).
(١٩) ينظر: روح المعاني ٣٠/ ٢٧٢.
(٢٠) تفسير الرازي ٣٢/ ١٧٨ -١٧٩.
(٢١) ينظر: مجمع البيان في تفسير القران، المجلد (١)/ ٢٤٤.

الله ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي في إنشائهما مقدرين على سبيل الاختراع واختلاف الليل والنهار كل واحد منهما يخلف صاحبه إذا ذهب احدهما جاء الأخر على وجه المعاقبة أو اختلافهما في الجنس واللون والطول والقصر والسفن التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من مطر فيحيي به الأرض بعد موتها وإعادة الحياة، كل هذه الأمور العجيبة والمسائل يبدأ منها التعجب، فالإنسان يجب أن يفطن بعقله إلى ما خلق الله له ليستدل على خالقه وليشهد انه اله واحد. والقران الكريم دائما يقول (يتفكرون) و(يعقلون) و(يتدبرون) و(يتذكرون)، وكل ذلك معناه إنهم لو فكروا، ولو عقلوا، ولو تدبروا، ولو تذكروا؛ لانتهوا إلى الحقيقة التي يريدها الله، فالله ينبه المؤمن بان يستقبل الأمور بعقله وبفكره لأنه سبحانه يعلم أن الإنسان إذا ما فكر أو تمعن فسوف يعرف إن هذا الكون العجيب له رب واحد.

فالإمام الكاظم عليه السلام يستدل بهذه الآية على أن الله أكمل للبشر عقولهم حتى تكون حجة عليهم فلو تفكروا قليلا لعرفوا أن تلك الآيات الباهرة تدل على ربوبيته وتكشف عن وحدانيته، فالسماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وجريان الفلك ونزول الماء من السماء وبث الدواب في الأرض وتصريف الرياح وتسخير السحاب، كلها من الآثار التي يستدل بها على وجود الله المنعم.

وذكر الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أدلة أخرى في رسالته على وحدانية الله بقوله: (يا هشام: قد جعل الله ذلك دليلاً على معرفته بان لهم مدبرا فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة النحل: ١٢] وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة غافر: ٦٧] وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ

مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٦٤] وقال: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[سورة الحديد: ١٧] وقال: ﴿ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الرعد: ٤] وقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[سورة الروم: ٢٤][٢٢]

فالإمام الكاظم عليه السلام استدل بهذه الآيات على آثار الله عز وجل الدالة على وحدانيته ووجوده فلو أمعن بها الناظر وتدبر لآمن بان الخالق واحد احد ولم يبق له مجال للريبة والشك لذا كررها الإمام عليه السلام بعد أن بينها في مقدمة رسالته.

ولو لاحظنا هذه الآيات لوجدنا أنها تنتهي بكلمة (يعقلون، تعقلون) وهذا دليل واضح على رجحان العقل وانه يميز الحسن من القبيح، فالعاقل هو الذي يفكر في آثار الله الدالة على وجوده، وان هذا الكون لا بد له من رب عظيم؛ فتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم كلها من آثار الله وعظمته بل إن في خلق الإنسان آية تدل على حكمة الله ووحدانيته، فلو شئنا أن نحلل أية آية من هذه الآيات التي استدل بها الإمام عليه السلام لوجدنا أن الله يدعونا إلى أن نظر في الكون الرحب ونتأمل في النعمة الموجودة لنا فلا احد يدعيها لنفسه، ولو كان هناك خالقان لاختلف نظام الكون واخذ كل منهما برأيه من دون الالتفات إلى الأخر، ولاختلت موازين الحكم والمقاليد، والحاكم في كل ذلك العقل. فالعقل يهدي إلى الحق وينير درب الجاهل ويسلط الأضواء على خالق واحد لا غير. فالعقل هو الدعامة الكبرى للإنسان في مسيرته، وهو الشعلة المضيئة التي يبصر بها الطريق، ويصل به إلى القصد، وان من كمال العقل أن يبصر حقائق الأمور ويلم بواقعها، ويعرف مجاريها، ويطيع الله تعالى وينقاد

(٢٢) حياة الإمام موسى بن جعفر ١/ ١٣٠.

لأوامره الذي هو الغاية من وجوده. قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦]، فلا فلاح للإنسان ولا سعادة له، إلا بالعقل واليه تعزى كل حكمة وفضيلة يشرف بها الإنسان، فهو العنصر الفعال في تكوينها وإيجادها. والعقل حجة من حجج الله تعالى على خلقه، يهدي من اتبعه إلى طريق الحق، وينجيه من عذاب اليم. فالعاقل الكامل هو الذي يدعو إلى عبادة الله عز وجل خالق السموات والأرض، وواهب الحياة. وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: (إن لله على الناس حجتين، حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، واما الباطنة فالعقول))[٢٣].

١. رجحان العقل والعلم وأولي الألباب:

إنَّ الله تعالى إنما يثيب عباده الصالحين على قدر عقولهم ووعيهم، وأكد الإمام الصادق عليه السلام على ملازمة الدين للعقل، وعدم انفكاك احدهما عن الآخر(من كان عاقلا كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنة)[٢٤] والعلم من أهم الوسائل في تطور الأمم وتقدم الشعوب، وان من المستحيل أن ينهض شعب جاهل ويحتل مركزا مميزا بين الدول، وقد استدل الإمام الكاظم عليه السلام على هذا المحور في رسالته بقوله: (يا هشام: إن الله تبارك وتعالى بشر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[سورة الزمر: ١٧][٢٥] فالإمام عليه السلام يستدل بهذه الآية على تقدم أهل العقول المستقيمة على غيرهم، لان الله قد بشرهم بالهداية والنجاح، وكذلك قوله عليه السلام: (يا هشام ثم ذكر أولي الألباب بأحسن الذكر وحلاهم بأحسن الحلية، فقال: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٩]وقال تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[سورة آل عمران:

(٢٣) بحار الأنوار ١/ ١٣٢، وينظر: أصول الكافي ١/ ٥٦.

(٢٤) أصول الكافي ١/ ٢٥.

(٢٥) حياة الإمام موسى بن جعفر ١/ ١٢٢.

٧] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[سورة آل عمران: ١٩٠] وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة الرعد: ١٩] وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة الزمر: ٩] وقال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[سورة ص: ٢٩] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾[سورة غافر: ٥٣] وقال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[سورة الذاريات: ٥٥] فقد استدل الإمام الكاظم عليه السلام بهذه الآيات على مدح العقلاء الكاملين وتفوقهم على غيرهم، فقد وصفهم الباري عز وجل بأحسن النعوت والصفات. فالآية الأولى دلت على انه تعالى أعطى بعض عباده (الحكمة) وهي وضع الشيء في موضعه النافع فمن يمنح بها فقد أوتي خير الدنيا، أما الآية الثانية فوصف الله عباده العقلاء بثلاث نعوت هي: الرسوخ في العلم، والإيمان بالله، والعرفان، أما الآية الثالثة فيذكر الله بها عباده بوحدانيته فالسماوات والأرض من آيات الله الباهرة التي تدل على عظمة خالقها ومكونها، أما الآية الرابعة فدلت على الإنكار والاستفهام من الذي يساوي بين العاقل والجاهل والفرق بينهما واضح لا لبس فيه كالأعمى والبصير، أما الآية الخامسة فدلت على التفاوت بين من يطلب رحمة ربه ليلاً ونهاراً من خلال ادائه الصلاة والعبادة ومن يطلب ملذات الحياة مشغولاً عن عبادة ربه. أما الآية السادسة فدلت على عظمة أصحاب العقول النيرة الذين يتفكرون في الكتاب المنزل إليهم من الله وما به من معارف جليلة وأسرار عظيمة. ولا يظفر بها إلا أصحاب العقول السليمة المستقيمة، أما الآية السابعة فدلت على توارث أصحاب العقول فهم الذين يطبقون المنهج السليم جيلا بعد جيل، إما الآية الثامنة فهي لتذكير المؤمنين بان أصحاب العقول هم الذين يميزون بين الحق والباطل. على أن الملاحظ في الآيات

السابقة نهايتها بـ(أولي الألباب، أولوا الألباب) إذ إن خطاب الله لأولي العقول الكاملة التي أيقنت الحق وعرفته وشعرت به، ثم أشار الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلى ملازمة العقل للعلم بقوله: (يا هشام: إن العقل مع العلم قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣][٢٦] فالعقل بجميع مراتبه لا يفارق العلم ولا يفترق عنه وهذا ما دلت عليه الآية الكريمة فالله عندما يضرب الأمثال لا يريد بها حقيقتها وإنما يريد أن يؤثر في النفوس التي جهلت حقيقتها فهذه الأمثال وان كانت غير مخيفة فلا يعقلها إلا من حصل له العلم والمعرفة فهو الذي يميز بين السقيم والصحيح ثم إن الإمام الكاظم عليه السلام بعد أن عرض لصفات ذوي العقول المستقيمة أبان صفات ذوي العقول غير المستقيمة بقوله: (يا هشام: ثم ذم الذين لا يعقلون فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[سورة البقرة: ١٧٠] وقال: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٧١] وقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[سورة يونس: ٤٢] وقال: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [سورة الفرقان: ٤٤][٢٧] فالإمام الكاظم عليه السلام يستدل بهذه الآيات الشريفة على ذم من لا يعقل فالإمام عليه السلام بعد أن حث البشر على التحلي بالصفات الكريمة التي يسمو بها الإنسان، والتي تبناها الإسلام منذ فجر تاريخه، ودعا إليها الناس ليكونوا قدوة لغيرهم من بين سائر الأمم والشعوب، وحذر من الصفات الذميمة، والنزعات الشريرة التي توجب انزلاق الإنسان إلى مستوى سحيق. فالآية الأولى دلت بصراحة على ذم من يتبع أسلافه في الأمور الدينية من غير حق ولا دليل والذي يحفزهم في ذلك

(٢٦) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ١/ ١٣٣.

(٢٧) حياة الإمام موسى بن جعفر ١/ ١٣٤-١٣٥.

التقليد الأعمى بدون وجه حق ولو كان لهم عقول لفقهوا أن التقليد في الأديان والعقائد أمر لا يسوغه العقل السليم بل لا بد أن تؤخذ العقيدة من الدليل العلمي الصحيح وهذه الآية تعالج قضية خطيرة في المجتمع الإسلامي، قضية تقليد الناس لعادات آبائهم، والتقليد هو نشأة طبيعة في الإنسان، فتقليد الأجيال اللاحقة للأجيال السابقة أمر تقتضيه طبيعة الوجود وحين يدعو الله الناس أن يتبعوا ما ينزله على الرسل فهو ينهاهم أن يتبعوا تقليد الآباء في كل حركاتهم، لأنه قد تكون حركة الآباء قد اختلت بالغفلة عن المنهج أو بنسيان المنهج وقضية التقليد الأعمى هي أمر مزعوم فالله يرد عليه من ناحيتين الأولى من ناحية التعقل والأخرى الاهتداء وكل من التعقل والاهتداء منفي عن الآباء في هذه الآية فهم جهلة ومتعصبون. أما الآية الثانية فهي متصلة بالآية الأولى فالجهلة ذوي العقول غير السليمة هم كالإنعام والبهائم التي لا تعي دعاء الراعي لها سوى سماع الصوت منه دون أن تفهم المعنى. أما الآية الثالثة فقد وصف الله حال بعض الكفار بأنهم صم من ناحية إدراك المعنى وتفهمه مع أنهم يستمعون إلى قول الرسول ﷺ وما يتلو عليهم من آيات ودلالات فلا جدوى بهم لان عقولهم لا تقبل العلاج والنصيحة، إما الآية الرابعة فهي مكملة للآية التي قبلها فبعد أن أصبح الكفرة صماً عن نداء الحق أصبحوا كالأنعام في عدم الانتفاع بما يقرع أذانهم من الآيات الكريمة بل والإمام عليه السلام إنما يستدل بهذه الآيات ليعلم البشر بان إتباع الحق يبدأ من العقل.

٢. المحظورات والمحرمات:

الحظر لغة كما يقول ابن فارس: (الحاء والظاء والراء أصل واحد يدل على المنع، يقال: حظرت الشيء احظره حظرا، فانا حاظر والشيء محظور)[٢٨] والحظر منع الشيء منعا يثاب على تركه ويعاقب على فعله[٢٩]. وجاء في اللسان (الحظر: الحجر، وهو خلاف الإباحة، والمحظور: المحرم)[٣٠] والحرام الممنوع منه أما بتسخير الهي وأما

(٢٨) مقاييس اللغة ٢/ ٨٠، وينظر: المفردات في غريب القران ١٧٦.
(٢٩) معجم لغة الفقهاء ١٨٢.
(٣٠) لسان العرب مادة (حظر).

بمنع قهري وأما بمنع من جهة العقل، أو من جهة الشرع أو من جهة من يرتسم أمره[٣١].

والحرمة ما لا يحل انتهاكه؛ والحرام ضد الحلال ويقال: هو ذو محرم منها إذا لم يحل له نكاحها، والتحريم ضد التحليل وحرمت الصلاة على الحائض حرما أي منعت إياه[٣٢]. وقد أورد الإمام الكاظم عليه السلام آية ذكر فيها المحظورات والمحرمات التي لا يبيحها الله تعالى والتي يتعرف عليها من خلال العقل[٣٣]، بقول الله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٥١].

فالملاحظ في هذه الآية انه بدا التحريم بالتوحيد فقال: ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ثم أوصى بالوالدين إحسانا وعدم العقوق لهما ثم ذكر الأبناء وحرمة قتلهم خوفا من الفقر ثم حرم الفواحش والمعاصي ظاهرها وباطنها ثم أعاد ذكر القتل وان كان داخلا في الفواحش تفخيما لشانه وتعظيما لأمره والنفس المحرم قتلها هي نفس المسلم و المعاهد[٣٤]. والوصية لا تكون إلا للأمور المهمة التي لا تستقيم إلا بالقيام بها والوصية تضم أمهات المسائل في التشريع والعقل يجب إن يسع المسالة من أولها إلى أخرها؛ فلو استعملت عقلك في كل منهيّ عنه، أو في كل مأمور به في الآية فستجد التعقل يعطيك التوازن في القرار، فكان العقل لو خلي لبحث هذه الأشياء بحثا مستقلا عن منهج السماء لوجد أن ضرورة العيش على الأرض تتطلب وجود هذه الأشياء.

## المبحث الثاني:

## استدلال الإمام الكاظم عليه السلام بالآيات غير الصريحة على العقل

أشارت المراجع والمصادر إن عمليات وإجراءات واستراتيجيات العقل، تنعكس بممارسات عديدة، لعل أبرزها: التفكير والتعقل والمعرفة والتذكر والتخيل،

(٣١) المفردات في غريب القران ١٦٤ -١٦٥.
(٣٢) مختار الصحاح ١٣٢ -١٣٣.
(٣٣) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ١/ ١٣١.
(٣٤) ينظر: مجمع البيان، المجلد(٢)/ ٣٨٢.

وحل المشكلات واتخاذ القرارات والاستنتاجات والخبرة والحكمة والرشد والنقد والابتكار[٣٥]. وسوف نلقي نظرة على استدلالات الإمام الكاظم عليه السلام بالآيات القرآنية والآثار المترتبة على معرفة العقل واستعماله بصورة صحيحة ومعرفة الحقائق والابتعاد عن الأخطاء والزلل من خلال الوعظ والإرشاد والترغيب والترهيب وبيان موقف الكثرة من الناس والقلة وفي أي صف يكون الحق.

١. الوعظ والإرشاد:

وذلك من خلال ذكر الأقوام التي أهلكها الله سبحانه وتعالى في القران الكريم وما آل إليه أمرهم في الدنيا وما سوف ينالونه في الآخرة، فقد ذكر الإمام الكاظم عليه السلام ذلك بقوله لهشام ((يا هشام: ثم خوف الذين لا يعقلون عقابه فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الصافات: ١٣٦ -١٣٨] وقال: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٣٤-٣٥][٣٦] فلقد استدل الإمام عليه السلام بهذه النصوص الكريمة على تدمير الله عز وجل للذين لا يعقلون من الأمم السالفة التي لم تمعن التفكر والتعقل بالله وكفرت به وقد نزلت في قوم لوط عليه السلام فقد عاقبهم الله تعالى بأشد العقوبات فجعل أرضهم بحيرة قبيحة. وهذا خطاب لمشركي العرب أي تمرون في ذهابكم ومجيئكم إلى الشام على منازلهم وقراهم بالنهار وبالليل أفلا تعتبرون بهم ومن كثر مروره بموضع العبر فلم يعتبر كان ألوم ممن قل ذلك منه والمعنى. أفلا تتفكرون بما نزل بهم لتجتنبوا ما كانوا يفعلونه من الكفر والضلال[٣٧]. فهم يخرجون من طاعة الله إلى معصيته بفسقهم وترك الله من تلك القرية عبرة واضحة ودلالة على قدرته فذلك وعظ وإرشاد للذين يعقلون ويتفكرون ويبصرون. وذكر الالوسي في تفسيره أن

(٣٥) الإدارة بالذكاءات ٧٠ -٧١.

(٣٦) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ١/ ١٣٢-١٣٣.

(٣٧) مجمع البيان، المجلد(٤)/ ٤٥٨.

تدمير الله وعقابه لتلك الطائفة من الناس عبرة وموعظة للذين يعقلون، فان فيه تحذيرا لهم من مخالفة المرسلين والمصلحين فان عاقبة المخالفة والعصيان هو الدمار والهلاك[٣٨]. وكذلك ذكر الإمام عليه السلام في رسالته: (يا هشام: ثم ذم الذين لا يعقلون فقال: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الحشر: ١٤]. وقال: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٤٤][٣٩]. فالآية فيها ذم الجهلة لان فيها ثلاث صفات ذميمة وهي (الجبن عن الحرب، والبأس الشديد فيما بينهم، وتشتت قلوبهم) والله يصفهم بعدم العقل، فإن العاقل لا يكون جبانا كما أنه لا يقع باس بينه وبين غيره فان ذلك ينشا من الجهل، كما انه لا يخالف العقلاء ولا يفترق عنهم لان طريقهم ودينهم واحد، وذلك لاتحاد أفكارهم ووحدة اتجاههم فلا يعقل التفرق والانقسام بين صفوفهم فان ذلك إنما ينشا من الجهل وعدم المعرفة[٤٠]. وفي الآية الأخرى نلاحظ إن علماء اليهود يعظون غيرهم ولا يعظون أنفسهم وكان من الأجدر بهم إن يتفكروا في من وعظ بما لم يتعظ به فكأنه جمع بين المتناقضين وهذا لا يكون من شان العقلاء[٤١]. ولنتقل إلى فصل آخر من رسالته، يقول الإمام عليه السلام: (يا هشام: إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [سورة ق: ٣٧]. يعني العقل وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [سورة لقمان: ١١]. قال: الفهم والعقل)[٤٢] فالإمام عليه السلام ذكر في الآية الأولى إن معنى القلب ليس العضو الموجود في الإنسان والذي يقوم بعملية توزيع الدم في إنحاء جسمه؛ بل المراد منه العقل الذي يدرك المعاني الكلية والجزئية، ويتوصل به إلى معرفة حقائق الأشياء.

وهو في الحقيقة القلب المعنوي للإنسان

(٣٨) روح المعاني ٧/ ٣١٣.

(٣٩) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ١/ ١٣٤-١٣٥.

(٤٠) المصدر نفسه ١/ ١٣٨.

(٤١) ينظر: مجمع البيان، المجلد(١)/ ٩٨.

(٤٢) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ١/ ١٤٤.

الذي امتاز به عن سائر الحيوانات. إما الآية الثانية احتوت على ما أعطاه الله تعالى إلى لقمان الحكيم من نعمة، فقد وهب له الحكمة. وأعطاه العقل والعلم والعمل بهما. فالإمام(عليه السلام) في هذا المفصل من رسالته لهشام بين موقفين: الموقف الأول الأقوام التي كفرت بالله ولم تتخذ من عقولها سببا إلى النجاة من الهلاك. والموقف الثاني الأقوام التي آمنت بالله واتخذت من عقولها سلما إلى طريق الحق. فالإمام من خلال هذه الآيات يعظ الناس ويرشدهم إلى طريقين الحق والباطل الذي يفرق بينهما بوساطة العقل والتفكر.

٢. الترغيب والترهيب:

وذلك من خلال استدلال الإمام(عليه السلام) بالآيات التي فيها ترغيب بالآخرة ونعيمها الدائم والتي لا يصل إليها البشر إلا بعد تمعن وثبات بمعرفة الخالق وعدم الشرك به، وترهيب من يضل منهم بالنار والعذاب الدائم، وقد أشار الإمام الكاظم(عليه السلام) إلى ذلك في رسالته بقوله: (يا هشام: ثم وعظ أهل العقل ورغبهم في الآخرة فقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الإنعام: ٣٢] وقال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الروم: ٢٨][٤٣]. فالآية الأولى تعني أن الحياة الدنيا زائلة لا محالة أي باطل وغرور إذا لم يجعل الإنسان فيها طريقا إلى الآخرة وإنما عنى بالحياة الدنيا أعمال الدنيا لان نفس الدنيا لا توصف باللعب وما فيه رضا الله من عمل الآخرة لا يوصف به أيضاً لأن اللعب هو ما لا يعقب نفعا واللهو هو ما يصرف من الجد إلى الهزل وهذا إنما يتصور في المعاصي والدار الآخرة وما فيها من أنواع النعيم والجنان خير للذين يتقون معاصي الله لأنها باقية دائمة لا يزول عنهم نعيمها ولا يذهب سرورها[٤٤]، فالآية تسلية لأصحاب العقول بما حرموا من متاع الدنيا وتقريع لأصحاب العقول

(٤٣) حياة الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) ١/ ١٣١-١٣٢.

(٤٤) ينظر: مجمع البيان، المجلد(٢)/ ٢٩٣.

الجاهلة إذ ركنوا إلى حطامها ولم يعملوا لغيرها. فالإمام(عليه السلام) إنما يستدل بهذه الآية بما يُرغّب الله تعالى عباده العقلاء بدار الخلود، وذمه لدار الدنيا فهي محصورة في اللعب واللهو على الرغم من وجود العمل الصالح والخير فيها لأنها موصوفة بالدنيا وهي مأخوذة من الدنو والسفالة وعليه ينبغي للعقلاء أن يزهدوا فيها ويبتعدوا عن الحرام ويعملوا لدار الآخرة ونعيمها.

أما الآية الثانية فقد استدل بها الإمام(عليه السلام) على ترهيب أصحاب العقول البُله فهم يخافون من عبيدهم وإمائهم أن يشاركوهم في أموالهم التي يرثونها من آبائهم كما يخاف الرجل الحر من شريكه الحر في المال يكون بينهما أن ينفرد دونه فلا يحب أن يشاركه فيه احد. والمعنى إنكم إذا لم ترضوا في عبيدكم أن يكونوا شركاء لكم في أموالكم وأملاككم فكيف ترضون لربكم أن يكون له شركاء في العبادة[٤٥].

٢. القلة والكثرة:

وذلك من خلال استدلال الإمام الكاظم(عليه السلام) بالآيات الشريفة التي تبين مواقف المنافقين والجهلة الذين يجتمعون بكثرة على الباطل وقلة من يتبع طريق الصواب والعدل. قال الإمام(عليه السلام): (يا هشام: ثم ذم الله الكثرة فقال: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[سورة الإنعام: ١١٦]وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٦١] وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٣][٤٦] فالآية الأولى فيها خطاب للرسول(صلى الله عليه وآله)، والمراد غيره ويعني بها الكفار وأهل الضلالة وإنما ذكر الأكثر هنا لان الله سبحانه علم أن منهم من يؤمن ويدعو إلى الحق ويذب عن الدين ولكن هم الأقل والأكثر الضلال[٤٧]. ولا بد هنا من التفريق بين الأكثر والأعظم فالأعظم قد يوصف به واحد ولا يوصف بالأكثر واحد بحال لهذا يقال في صفة الله

(٤٥) المصدر نفسه، المجلد(٤)/ ٣٠٣.

(٤٦) حياة الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) ١/ ١٣٨.

(٤٧) ينظر مجمع البيان، المجلد(٢)/ ٣٥٦.

عز وجل عظيم وأعظم ولا يوصف بأكثر، وفي هذا دلالة على انه لا عبرة في دين الله ومعرفة الحق بالقلة والكثرة لجواز أن يكون الحق مع الأقل. أما الآية الثانية والثالثة فقد خاطب الله فيها نبيه بأنه لو سألهم من هو الخالق والمنزل العطاء من السماء لأجابوك بأنه الله وهم لا يؤمنون به في قلوبهم بل بألسنتهم، ومن ادعى قولا لا يعلمه عد سفيها وجاهلا.

ونلحظ قوله تعالى: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ، لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي مع إقرارهم بتوحيد الله وانه الخالق الأوحد لهذا الكون والمعطي الأسباب فهم يشركون به وهذا من فعل المنافقين مما يدل على أنهم لا تدبير لهم ولا تفكير. وعليه قل يا نبي الله محمدﷺ أو يا أيها السامع (الحمد لله) على هدايته لنا وتوفيقه إيانا لمعرفته. ولننتقل إلى جزء أخر من رسالته إذ يقول عليه السلام: (يا هشام: ثم مدح القلة فقال: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[سورة سبا: ١٣] وقال: ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾[سورة ص: ٢٤] وقال: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾[سورة غافر: ٢٨] وقال: ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [سورة هود: ٤٠] وقال: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[سورة الإنعام: ٣٧] وقال: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة المائدة: ١٠٣] وقال: أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [سورة هود: ٤٠][٤٨] فالآيات فيها دلالة على قلة المؤمنين وندرة وجودهم وتفتح عقولهم النيرة، فهذه القلة يعود سببها إلى إيمان هذه المجموعة بالله وهي من أعظم الطرق التي يصل إليها الإنسان وهي منزلة رفيعة لا يصلها إلا ذو حظ عظيم تمعن بعقله وتفكر، ففي سورة المائدة خص الأكثر بأنهم لا يعقلون لأنهم أتباع؛ فهم لا يعقلون أن ذلك كذب وافتراء كما يعقله الرؤساء، أما في سورة سبا ففيها دلالة على أن المؤمن الشاكر يقل في كل عصر[٤٩]. أما في سورة (ص) فان الذين امنوا وعملوا الصالحات أصحاب العقول الذين يعرفون الله حق معرفته هم قليل وما هنا زائدة والأصل: قليل هم. أما في سورة

(٤٨) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ١/ ١٤٠.
(٤٩) ينظر: مجمع البيان، المجلد(٤)/ ٣٨٢.

هود فقد ذكر الإمام عليه السلام عدد الذين امنوا بنبي الله نوح عليه السلام وقيل هم ثمانون إنسانا في قول الأكثرين وقيل اثنان وسبعون رجلا وامرأة وبنوه الثلاثة ونساؤهم فهم ثمانية وسبعون نفسا[٥٠]. وعليه فاستدلال الإمام الكاظم عليه السلام بالقلة والكثرة إنما هو اثر من آثار العقل فلا يعني أن الكثرة تكون على الحق دائماً؛ بل قد يجتمعون على الباطل كذلك.

## المصادر


القران الكريم.

١. الإدارة بالذكاءات: د. احمد علي صالح وآخرون، دار وائل للنشر، عمان، ط ١/ ٢٠١٠م.

٢. الأذكياء: معروف رزيق، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م.

٣. أصول الكافي: الشيخ الكليني، دار الكتاب للنشر والتوزيع. بيروت، لبنان.

٤. أعيان الشيعة: محسن الأمين، تح: حسن الأمين، دار المعارف، ط٥/ ١٩٩٤م.

٥. أقوال مأثورة في الإدارة: رعد الصرن، سلسة الرضا للمعلومات، دمشق ٢٠٠٣م.

٦. بحار الأنوار: العلامة المجلسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.

٧. تحف العقول: ابن شعبة، دار العروبة للنشر والتوزيع، دمشق.

٨. تفسير الرازي (مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير): فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، لبنان.

٩. تقريرات آية الله العظمى الخوئي في علم الأصول: الشيخ باقر شريف القرشي، مطبعة النجف، النجف الاشرف، (د. ت).

١٠. حياة الإمام محمد الباقر: الشيخ باقر شريف القرشي، مطبعة النجف، النجف الاشرف ١٩٥٨م.

١١. حياة الإمام موسى بن جعفر: الشيخ باقر شريف القرشي، مطبعة شريعة، إيران، ط١/ ٢٠٠٨م.

١٢. شرح نهج البلاغة: ابن أبي حديد، تح: محمد أبو الفضل، مصر، ط٢/ ١٩٦٥م.


(٥٠) المصدر نفسه، المجلد(٣)١٦٤.

١٣. روح المعاني: الالوسي، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٠م.
١٤. العقل مدخل موجز: جون سيرل، ترجمة: ميشيل حنا، عالم المعرفة، العدد ٣٤٣، الكويت ٢٠٠٧م.
١٥. علم النفس التربوي: روبرت مكلفين، ترجمة: ياسمين حداد وآخرون، دار وائل، عمان ٢٠٠٢م.
١٦. لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، بيروت ١٩٥٦م.
١٧. مجمع البيان في تفسير القران: الطبرسي، دار مكتبة الحياة، بيروت.
١٨. مختار الصحاح: الرازي، محمد بن بكر، دار الرسالة، الكويت ١٩٨٣م.
١٩. المدخل إلى الشريعة الإسلامية: الشيخ عباس كاشف الغطاء، النجف الاشرف ٢٠٠٤م.
٢٠. معجم لغة الفقهاء: د. محمد رواي ود. حامد صادق، دار النفائس، بيروت، ط٢/ ١٩٨٨م.
٢١. المفردات في غريب القران: الراغب الأصفهاني، نشره، د. محمد خلف الله، مكتبة الانجلو المصرية (د. ت).
٢٢. مقاييس اللغة: ابن فارس، احمد بن فارس، تح: محمد عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة ١٩٧١م.
٢٣. موسوعة الإمام الصادق: الشيخ باقر شريف القرشي، مطبعة شريعت، إيران، ط١/ ٢٠٠٨ م.